على هامش رحلتي الى الحجاز

فى تكية الدراويش*

للدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ الشرقى بجامعة بودابست

خاتمة

وتقع فى جانب الجبل مغارة عميقة هائلة ليست كلها من عمل الطبيعة ، بل إنهم اجتهدوا فى توسيعها شيئاً فشيئاً ، فهذه المغارة هى فى الواقع مقبرة الدراويش يتوسطها مقام الشيخ الكبير أبو عبد الله المغاورى الذى يرجع الفضل إليه فى تأسيس تكية القاهرة ، يحف به مئات من قبور الاخوان الدراويش ، وهى متناثرة هنا وهناك فى جوف المغارة . وأسر إلى صديق بأن هؤلاء الاخوان إنما تحرروا من قيودهم الزمنية وانطلقوا إلى العالم الآخر ليظفروا بلمحات يكشف لهم فيها الغيب ، ويروا ما لا تراه العيون . بيد أننى لم أفكر كما فكرت الساعة فى أن الرجال فى أية لحظة من لحظات حياتهم هم أموات بالنسبة لتلك اللحظة ، فليس الوقت هو الذى يمضى سراعاً ، ولكننا نحن الذين نبتعد عن الزمن الصامت الثابت

وإذا ما أراد الزائر أن يهبط إلى جوف المغارة فعليه أن يخلع نعليه أولا ويودعهما فى صندوق خشبى مستطيل الحجم بجوار الباب ، كما يتحتم عليه أن يدفع بعض ما تيسر فى صندوق النذور . ولقد رأيت أن المترددين لزيارة هذه القبور نفر يسير من سكان القاهرة الفقراء ، وأخصهم النساء اللواتى يلتمسن شيئاً من العزاء والسلوى فى وقوفهن أمام الأضرحة والقبور

خلعت وزميلى نعلينا وتأهبنا للتوغل فى داخل المغارة التى كانت شمس الصباح تنفذ من فوهتها . وبعد أن دفعنا بضعة قروش لحارس المقبرة وهو من الدراويش الأشداء ، دلفنا إلى مقصورة الشيخ الكبير مؤسس الطريقة ؛ وكان فى خارج المقبرة عدد من العجائز يرفعن أيديهن إلى السماء ويبتهلن إلى الله بالدعوات الصالحات ، وقد علمت أن فى وسع الموسرات منهن أن يدخلن إلى المقصورة ويمسسن الضريح بأيديهن للتبرك — ولكن هذا نادر — أما بقيتهن فمن الفقراء اللواتى لا يملكن قوت يومهن ، وهن يكتفين بالوقوف بباب المقصورة وأمامهن أحد الدراويش حاملا فى يده مقرعة ليفسح الطريق للزائرين

إن زيارة الأضرحة فى مصر لا تزال من العادات المتفشية بين جميع الطبقات ؛ وعلى الرغم من محاربة العلماء لها ، فليس من السهل القضاء على الخرافات الكثيرة المتأصلة فى نفوس العوام ، لأنهم يعتقدون أن بعض الأولياء تحل بركتهم بالمرضى فيبرأون . ولقد قضى الوهابيون على هذه البدع والنقائص كلها فحرموا زيارة الأضرحة والتبرك بالأولياء ، واستطاعوا أن يعيدوا إلى بلادهم الشرائع الاسلامية خالية من كل شائبة . وهم يقولون إن قوة الانسان فى حد ذاتها محدودة ، وليس فى وسع أى مخلوق أن يشارك الله فى قدرته ؛ ويعتقدون أن وجود هذه الأضرحة يعيد إلى الذاكرة عبادة الأوثان التى قضى عليها الاسلام وحاربها بكل قوة

ووقع نظرنا على ضريح الشيخ المغاورى يتوسط المقصورة فى مساحة لا تقل عن تسع ياردات ، وفى طرف الضريح رأس من الحجر ملفوف عليه قماش أخضر مطرز . وكذلك رأينا شمعتين كبيرتى الحجم موضوعتين بجوار الشاهد ، حتى خيل إلينا أنهما حارسان . ولا يجب أن يفهم من هذا أن هاتين الشمعتين موضوعتان لغرض الاضاءة ، كلا بل هما للزينة والتأنق ، لأننا شاهدنا مصباحاً متدلياً من السقف ينشر ضوءه الشاحب المخيف على وجوه الزائرين

جلست مع صديق حسونه على المقعد الحجرى المصاقب لضريح الشيخ ، نرقب عن كثب هذا المشهد المؤلم ، مشهد عشرات النسوة وهن يتمرغن فى الخارج على الحجارة ويرسلن أصواتاً مخيفة مزعجة كالنباح ، وأومأت إلى صديق أنه يستطيع أن يستخلص موضوع رواية يوضح فيها بجلاء حالة المرأة

* عن كتاب نشره بالمجرية بعنوان « الله أكبر »

المصرية ، ثم يعرج على وصف حالة العامل المصرى والفلاح المصرى ويحلل نفسية كل منهما . فالفلاح فى مصر لا يزال يكد ويشقى ، ويلاق من صنوف الهوان ومرارة العيش ، كما كان يعانيه زميله أيام بناء الأهرام دون تغيير أو تبديل فى أسلوب الحياة ، وما برحت الخرافات والبدع الدينية ظاهرة الأثر رغم تقدم الحضارة وانتشار العمران ، وما زالت مسيطرة على نفوس هؤلاء العوام

أجل ! إنه لولا وجودى فى القاهرة لما فكر صديق حسونه فى أن يقصد إلى تلك الخرائب والأضرحة ، ولكنى أغريته بزيارتها حتى يتمكن من أن يجمع المواد التى يتألف منها كتاب أو رواية تضم معتقدات العوام وحالتهم الفطرية

ولا أبالغ إذا قلت إن هذه المغارة وهذا الضريح الذى يتوسطها وتلك الأضواء الخافتة المستحيية ، وهذا الشيخ الذى تقصد النساء لزيارته خاشعات مسترسلات فى توسلاتهن الحارة . كل هذه مشاهد كان لها تأثير خاص على مشاعرى . أما حارس الضريح الذى لا يأذن لأحد بالدخول إلا إذا ناوله الجعل المخصص للزيارة فانه قادنا إلى أقصى المغارة حيث ألفينا نحو ثمانى نساء يطفن بالضريح ويلمسن الكسوة بأيديهن تبركا . ولقد حدث أن شاهدت واحدة منهن وهى واقفة كالصنم ، شاخصة ببصرها نحو المصباح الذى يرسل ضوءاً خافتاً لونه أحمر ، شاهدتها جامدة كالتمثال أكثر من دقائق معدودة ، لا تبدى حراكا لا يهتز لها جفن ، ورأيت أن ألفيت برقعها الأسود ملقى وراء ظهرها ، وكان وجهها شاحباً شحوب الموتى ، ولكن صديقى قال ذلك بأن الشمس قلما تسطع على هذه الوجوه ، لأنهن يعشن محجبات فى داخل دورهن وإذا ما خرجن أحكمن وضع البراقع السميكة التى تحجب عن وجوههن ضوء الشمس فيكتسب الجلد لون الصفرة . وكانت هناك عجوز شمطاء تلق بجسمها على جدار الضريح كأنما الشخص المدفون أحد أحفادها ، وثالثة نحيلة طويلة ، ترتدى السواد وتلطم صدرها بكلتا يديها ، ثم لا تلبث أن ترفعهما إلى السماء وتتوسل بصوت مرتفع . ورأيت الدموع تنحدر من عينيها وقد ارتسمت على وجهها آيات الرعب والفزع ، ثم سمعنا بعد ذلك صوتاً يخرج من صدرها ، وبعد برهة أخذت تولول وتمزق ثيابها . وكانت هذه الصرخة نذيراً لبقية النسوة اللواتى حافظن حتى هذه اللحظة على الصمت ، فانهن أسرعن إلى تقليد حركاتها والارتماء ثم التمرغ على الثرى والتدحرج حتى يصلن إلى المحراب ، وهناك تخور قواهن . أما صديق فقد راعه هذا المشهد المؤلم الذى يصور حالة خاصة من حالات الأمراض النفسية ، فأمسك بذراعى وطلب إلىّ أن نغادر المكان مربعاً ، بيد أنه نسى أن هذه المناظر المسترية هزتنى هزة عنيفة بحيث كدت أرتمى بدورى على الأرض ، لولا أننى قاومت هذه الرغبة وأقصيتها عن ذهنى . ما هذا البكاء ، وذلك العويل ، وشق الثياب ؟ لقد تمالكت رشدى ورحت أحدق فى وجوهن لأحاول أن أستخلص منها قصة كل واحدة ، وإليك نتيجة استنتاجى :

* * *

تربى الفتاة المسلمة على الطاعة والخضوع والانقياد ، لا على الحرية والصراحة فى الرأى والتفكير ، فالطاعة والانقياد هما الدعامة الأولى للتربية فى مصر ، وهذا هو السبيل للحياة المقبلة . فللوالد الحق فى أن يجبر ابنته على الزواج من الشخص الذى يختاره لها ويفرضه سيداً عليها : وليس عليها سوى الامتثال لمشيئته ، كما أن للزوج سلطة ضربها إذا عصيت له أمراً . وإذا أرادت المرأة أن تثأر لنفسها فليس أمامها سوى طريق واحد ، هو طريق المؤامرات السرية والدسائس . والعادة أن جميع الأزواج لا ينظرون إلى زوجاتهن إلا نظرة الازدراء والتحقير ، بل إن البعض منهن يعتبرن من سقط المتاع . وهذا هو السبب الذى يدعو الكثيرات منهن إلى أن يقصدن إلى تلك الأضرحة ليتوسلن إلى أصحابها ويستنجدن بكراماتهم من هول تلك الفظائع ولا يخفى ما للعواطف المكبوتة من الأثر السيء فى النفوس ، وهؤلاء اللائى يدفن رغباتهن فى صدورهن إنما يتعرضن لأفظع الآلام المسترية ، فيعمدن إلى إقامة حفلات الزار والتوسل بزيارة الأضرحة للبرء مما يصيبهن من الأمراض العصبية

إننى لا أزال وأنا أكتب هذه السطور أتذكر صورة هذا

الرجل الذى دخل علينا ونحن بضريح الشيخ المغاورى ثم اتخذ موقفه بين الشمعتين وما كاد يرى صياح النسوة حتى راح يهز رأسه هزاً عنيفاً بطريقة منتظمة ، ثم ينادى بأعلى صوته : الله ، الله ... وبعد برهة كان يلتوى على الأرض التواء الحية الرقطاء وتتقلص عضلات وجهه ، ويرسل صراخا كالنباح ثم يهتف قائلاً : الله أكبر ! الله أكبر ! حتى خيل إلينا أن صخور المقبرة أوشكت أن تلتقط منه لفظ الجلالة . وكدت أفقد رشدى من هول الموقف ، وأحسست كأن حشرجة الموت تنشب مخالبها فى حلقى ، فأردت أن أستنجد بكل قواى غير أنى لم أستطع إلى ذلك سبيلا ، فجاهدت قدر طاقتى حتى لا أسقط عن مقعدى ، ولكن بلا جدوى أيضاً لأننى شعرت كأن بى مسا من الجن ، وأن كابوساً قد جثم فوق صدرى ، وأن العرق البارد يتحلب من وجهى . وأخيراً هدأت نفسى فغادرت المكان وهتفت بصديق أدعوه إلى الصلاة . ولكنه أجابنى بعدم قدرته على أدائها وهو لا يزال يرجف فزعا . فتركته ومضيت إلى القبلة ، حيث عادت إلى طمأنينتى الأولى . وبعد الصلاة رحت أفتش عن صديقى فاذا به يقف بجوار المحراب باهت اللون ، ينتظرنى بفروغ صبر لنغادر هذا المكان الذى كان يرمقه بعيون مفتحة رعباً

وتأوه صديقى ونحن نغادر باب المغارة ، ثم أفضى إلىّ بأنه من الصعب أن يشعر بأقل ميل نحو الشرق ، حيث الأضرحة والعقائد القديمة البالية والعادات المرذولة ، ولكن أمه — تلك السيدة الوقور الطيبة الأخلاق — طالما شكت إلىّ إيمانه المزعزع واتجاهه نحو الغرب ، وكانت تصلى من أجله عسى الله أن يرشده إلى الطريق السوى ويغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

وانطلقنا إلى حديقة المغارة وما كدنا نستقبل الهواء الطلق حتى وقع نظرنا على طائفة من السائحات الأمريكيات وهن يصغين باهتمام إلى شروح بعض التراجمة والأدلاء ، فهتفت بصديقى قائلا :

— هذا هو الغرب الذى تتعشقه

(تمت) عبد الكريم برمانوس

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٢ —

النفس — طورها — التناسخ

رأيت فيما أسلفنا من مستحدثات عهد التطور تلك النظرية الفلسفية العميقة التى تقرر أن الوجود المادى باطل ، ولكنه مشتمل فى داخله على جوهر سام هو وحدة الحقيقة فى كل موجود ، ورأيت كذلك أن هذه النظرية لم تقتصر على كائن فى الوجود دون كائن ، فهى قد تناولت الآلهة والأناس والحيوان والنبات ، غير أن أهم ما يعنى الباحث فى هذا الجوهر الحق المختبئ وراء الأستار المادية إنما هو النفس

وقد عنى خاصة الهنود بها عناية شديدة منذ أقدم عهودهم بالتفكير ، فقرروا أنها هى الجوهر الحق فى الانسان ؛ ولذلك أطلقوا عليها اسم الانسان لأنهم اعتبروا الجسم بدونها باطلاً لا يستحق أن يدل على الانسان كما تدل عليه النفس . ولا شك أن الباحث حين يتأمل فى هذه النظرية للوهلة الأولى يلمح فيها عناصر نظرية « أفلاطون » فى النفس والمادة حيث يقرر أن النفس هى وحدها النور الخالد والحق الأسمى فى الانسان ، أما الجسمان المادى فانه خيال باطل لا تطلق عليه كلمة « حقيقة » إلا تجوزاً ، لحلول النفس فيه ولصوغه على نماذج المثل التى أبنا أن عناصرها مصرية

ويرى فلاسفة الهند أن النفس جاهلة بالفعل عالمة بالقوة ، وأن الجهل والعلم صفتان متعاقبتان عليها باختلاف الظروف والأحوال . ولا جرم أن الهنود قد سبقوا « أرسطو » بمدة قرون الى نظرية جهل النفس بالفعل وعلمها بالقوة وفوزها بالعلم الفعلى عن طريق الكسب والتجربة ، تلك النظرية التى يبسطها أرسطو بسطاً واضحاً حين يرد على أفلاطون القائل بأن النفس كانت عالمة بالفعل قبل أن تحل فى الأجسام المادية ثم نسيت